

العيون الملطخة بالطين

سأله احدهم : لماذا تلهت ؟

رد متسائلا : لماذا تلتطخ عيوننا بالطين ؟

راقب اشعة الشمس تحتضر في فضاء الشافة المفتوحة ،
والستارة المهترزة توارى القرص المنقرض واليد الطويلة تشدد من
قبضتها لتغير نظاما بنظام .

حين حملوها الى الخارج كان صوت زوجته ، حزينا ، مشروخا ،
في الوداع الاخير .. وهمهمات العزاء مسامير محماة ، تفقا اذنيه .
وهو يعبر جسر الازمات ، ويتماسك وسط ليل داج مقيم .. ولهذا
كان يندفع (بالفارب) الى الضفة الاخرى ليمنع الزلزل ويوقف
الاناسة .. ودوائر الماء تتكون وتتلاشى على السطح في اللج العميق ،
وصوت زوجته المبفونة يفرى عظامه ، والصوت المستقيث من الطرف
الاخر يقلقه بافراط فيندفع ضاربا بعنف .. ويمخر به مناسبا بالجهد
الآني ، والضفة امامه تتباعد كلما ازداد اقترابا .

سأله احدهم وقد اخضرت اسنانه الامامية من مسحوق القات :
- لماذا تعادينا امريكا ؟
رد متسائلا : لماذا تلتطخ عيوننا بالطين ؟.

انحسر الانكسار على الجدار الخارجي ، وتضاءلت امواج الاغبرار
التي تسبق الظلام .. تأكد من ذلك ، من خلال النافذة المفتوحة ذات
الستارة المهترزة ، ومن بين دخان السجائر العابقة والانفاس
المتراخمة في الغرفة الضيقة .

اصوات المحيطين به طفت على صوت (الراديو) .. تطلق من
افواه نصف محشوة بحماس مفتعل . وهذه العيون التي ت برق فوق
الوجوه السمراء سوف تلتطخ بالطين .. فهل يعلمون ذلك ؟

حين انزلوها في حفرة عميقة ، وقف مع الواقفين على السفح ..
وتناولتها يدان من العمق ووسدناها في فراغ داخلي .. وسمعت
ارتال من الدود حول الجسد الناعم ، تنأهب للاختراق والنهش ..
وامتدت احدى اليدين لتتزع فضاء الوجه ، فظهر ملائكي البراءة ..
ابيض بضا ، بجفنين مطبقين ، واهداب طويلة مسترخية .. ثم

ما زالت اشعة الشمس الصفراء في الغروب ، منكسرة على حافة
الجدار الخارجي للبيت ، وتمتد الظلال زاحفة في الجهة الشرقية ،
ومن الغرفة المحتشدة بالكتل المنائرة ، ترقب حركتي الانكسار
والامتداد بصمت .

في هذه اللحظات السريعة ، تمتد يد - لا شك - لتغير نظاما
بنظام ، تدير الكون حوله ، تبدل بالنور الظلام ، تماما كنتك اليد
الطويلة الفليضة ، التي غيرت حياته ، وقلبت نظره الى كسل
الاشياء .

من مكنه المتراحم يرقب اشعة الشمس تحسر وتتضائل امام النافذة
المفتوحة ، والهواء يهز ستارتهما برفق متمواج .

في الضفة الاخرى من النهر العظيم ، كان يدرك ان نمة امورا ،
تجري بلا مستقر ، وعليه وحده مسؤولية ايفاف الاناسة ، منع تلك
اليد الطويلة الفليضة من نطبخ الوجه الطفولي البريء بالطين
بهمجية ممززة .. كان يستشعر المسؤولية ويقدر حجمها وكل
التضحيات المترتبة على ذلك .

امتطى (القارب) وحيدا وامسك بكلتا يديه بالمجدافين .. ومضى
يضرب بهما صفحة المياه الوداعة ، فتتكون دوائر متقاربة عند كل
ضربة ، ثم سرعان ما تتلاشى وينبعث الخريز عاليا ، والماء يقطر من
المجدافين في حالة الرفع وقبل الاسقاط من جديد .. كان القمر
يسكب نورا فضييا على (القارب) ويتشعب ليشمل جزءا كبيرا من
الدائرة حوله .. كان عليه ان يسرع ، ويفل الايدي الطويلة قبل الشروع
في الخنق ، وتلطخ الوجه البريء بالطين .

صوت الاستغاثة ياتي من بعيد .. مذبوحا ، فيشد من ساعديه ،
ويثبت قبضتيه حول عنقي المجدافين فيرتفعان ويهبطان بسرعة ،
(القارب) يمخر العباب وينساب برشاقة على صفحة المياه المنكسرة
... مدفوعا بالجهد الذاتي .

الصوت يتضخم في اذنيه والايدي الطويلة - لا شك - تلتف
حول العنق النحيل ، تضغط ، وتضغط .. وضرب وجه الماء بالمجدافين
يتضاعف ويتضاعف ، وانفاسه تترى محمومة متقطعة .. وبسرعة الانزلاق
تكبر وتكبر ، والضوء الفضي ينسكب عليه ، وينتشر في دائرة واسعة
حول له .

بصدره وهو يصب كؤوس اللذة .. ويستروح انفاسها المألوفة .. ولكن ارتاع في الوداع الأخير ، حين اندفعت تصرخ بحرقة لاسعة ، وشعرها منكوش ، وعيناها زائفتان .. وثمة ايد لرجال عديدين تمسك بها .. وتمنعا ، وقد برز احد نهديا عاريا من جانب في الشوب المشدود .. وهو يرقب المشهد بذهول ، وكنلتان من الاقنال توفسان قفصيه عن الحركة .

والاعداء ذوو الايدي الطويلة الفليضة في الضفة الاخرى .. قد نجحوا في الاجهاز على العنق النحيل .. واسكتوا اصوات الاستفانة .. وبامت محاولته بالفشل .. وغاص في الاعماق .
سأله احدهم : هل تعتقد ان الهدنة في صالح العدو ؟
سال هو : اي الاعداء ؟

بريق العيون بالدهشة المستمرة حوله لا يثير الاهتمام .. لان جلب الطين سوف تطفئه الى الابد ، مهما تعددت الالوان الوهاجة .

وحين تكوب مع الاخرين على حافة القبر العميق ، على ضوء (فانوس) لاهت الانفاس ، وصوت زوجته الناحب المتدفق من شلالات الدموع .. يصل اذنيه مقظرا .. وتتضائل امامه دممة الريح الهادرة .. والهجمات الآلية .. راي اليد الطويلة الفليضة ترتفع .. وتهوي بهمجية ، والشواهد حوله تتحول الى نسور ضاربة ، تلطم الوجوه ، وتختلط بنعيق الغربان وصوته يخدله وهو يشب الى العمق .. ويدها تقبضان على الرقبة الفليضة المتربة .. وايد كثيرة متمتجة مسح الاصوات تتجاذبه من كل مكان .. وهو يشعر بالاختناق ، وشيء صالا يقاوم يجذبه الى اسفل .. والظلام يزحف على حدقتي العينين .. وتغيب صور من حوله ، ويوشم في الذاكرة صورة وجه بريء تلتطخت عيناه بالطين .

امتدت اليد الاخرى ، وسط همهمات روتينية ، تنبعث من سراديب مقبضة ، وازمان سحيقة ، وتناوت قبضة من الطين ، وارتفعت الى اعلى برهة قصيرة .. و .. واستقظتها بقسوة .. وسمع نعيق الغربان تتناسل فوق رأسه وحوله وتحت قفصيه .. راي شواهد القبور تتحول الى نسور جارحة ، تصفق بأجنحتها بين المتحلقين وتضرب بها الوجوه الجامدة فتدمعها .. ورأي الايدي ترتفع ، وتقي .. والزحام يتكثف حوله ، ويحبس انفاسه وصوته الجهوري يختنق في العمق .. ويدها تقبضان على رقبة غليظة متربة .

سأله احدهم : لماذا قبلنا الهدنة ؟
اجاب متسائلا : لماذا تلتطخ عيوننا بالطين ؟

اصوات المراتين كانت تتناوشه اثناء العبور المضي . اصوات مشروخة ، تشبه بالحزن المعنق .. واخرى مستغيثة تزعقها ايد طويلة همجية .. وهو يلوب بقاربه بين الامواج الراكضة حول نفسه ، ويندفع الى امام تحت خيوط الضوء المشعة .. ويبين الدوائر المتقاربة .

في الخارج .. زحف الظلام الدامس واستوى .. تماما كذلك اللحظة ، التي تقهر فيها القمر وجثم الظلام الحالك عليه .. وحوله .. وغطى المساحة الكبيرة بكل اجزائها .. ووجد نفسه مضطربا وسط العجاج في بقعة مجهولة .. على طريق ضائع . وفاربه هدف سهل للتقاذف في الاتجاهات الاربعة .. دون خط للسير المحدد . والاصوات نايه من بعيد تارة ، ومن قريب تارة اخرى ، وفي لحظة واحدة رأى العذاب عملاقا وقادرا .. وقد تجسم في يأس مريع للمسمى الملح .. ودار مع (القارب) فوق الماء اللجج دورات كثيرة .. ودار تحته دورات قصيرة .. ثم افلته .. ومضى يصد ويصارع زحف الامواج الطاغية ، بطاقة بشرية خارقة ، فترة طويلة ، والاصوات لم تنقطع عن اذنيه ، بل ازدادت ارتفاعا اثناء اللحظات الحاسمة .. وحين رأت عيناه القمر من جديد يتوسط السماء ، ويترد من حوله نواتر عدم الرؤية ، كانت يدها تهزلان ، وتتراخيان ، وجسمه يخور .. والمالحة تفضي عينيه .. وتسرّب الى داخله بكميات كبيرة ومستمرة .. وشيء ما .. يجلب قدميه الى اسفل .. ونفسه نهرا وتضطرب .

قدم له احدهم سيجارة ، وسأله ، والآخرين ينتظرون : لماذا تلهث ؟

عبر النافذة ذات الستارة المسدلة الههافة ، راي الظلام ينسبط ويحلوك في الفراغ المستطيل ، والنور المنسكب من المصباح الكهربائي فوق الرؤوس يؤكد ما تاكد من الخارج .. وسمع هسيس الريح ينز جامحا غضوبا .. تماما كذلك الليلة في الوداع الاخير .. وصوت زوجته الضاج ، يقض السكون ويضعف وحشته ويتراعى عبر المسافات البعيدة .. وهو مشدود خلف شيء ملفوف في ملادة بيضاء بين يدي جاره .. يسيير تحوطه الهمهمات .. وتسيجه عبارات رخيصة نادبة .. وسط موكب من البشر دافق .

يخطو ويداوم .. وسط ظلام غامر كئيب ، يتوزع بكثافة في داخله وامامه .. وقد لازمه اثناء انجرافه مع التيار الى اسفل .. وهو يرامق القمر في عليائه البعيدة للمرة الاخرى .. وادرك بحدسه الذي لا يخطئ ، ان الرفقة ستطول قبل ان تلتطخ عيناه بالطين .

لم يكن يعرف ان لزوجه صوتاهمولا ، تكمن في نيرانه احزان متفردة ، تهدر كشلال دفاق من قمة الماساة الغالدة .. لقد انتفت البحة المحببة التي تميزت بها قبلا وهي تلبد بين ذراعيه ، تتمسح

روايات وقصص

من منشورات دار الآداب :

طواحين بيروت
اولاد حارتنا
الحي اللاتيني
اصابعنا التي تحترق
الخدق العميق
رحيل المرافئ القديمة
ساعات الكبرياء
العيون
احزان حزينان
الزحام
الحزن يموت ايضا
زورق من دم
فارس مدينة القنطرة
ثم تعود الموجة
عن الرجال والبنادق
رحلة الخفاش
الارض حبيبتي
حكايا للحزن
جوميبي

توفيق يوسف عواد
نجيب محفوظ
سهيل ادريس
»
»
غادة السمان
ادوار الخراط
سليمان فياض
»
»
يوسف الشاروني
يوسف شرورو
»
»
عبد السلام المجيلي
ديزي الامير
غسان كنفاني
محمد رؤوف بشير
عبد الكريم غلاب
اديب نحوي
»
»